القسم الثانى

المعارضة من زاوية الواقع والتطبيق

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

في عهد النبي ﷺ

obeikandl.com

obeikandl.com

١- فى غزوة بدر

نزل الرسول ﷺ بعسكره قريبًا من ماء بدر، فسأله الحباب بن المنذر:

- يارسول الله: أرأيت هذا المنزل: أَمَنْزِلٌ أنزلكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟.

فأجابه رسول الله ﷺ بأنه الرأى والحرب والمكيدة. فقال:

- يارسول الله: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نغوّر[١] ما وراءه من القُلُب[٢]. ثم نبنى عليه حوضًا، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فَرَحَّبَ رسول الله ﷺ بما أشار به الحُباب، وقال: «**لقد أشرت بالرأى**»، ونفذ ما أشار به، وكان ذلك سببًا أساسيًّا من أسباب نصر المسلمين فى بدر[٣].

وقد يسأل سائل: وأين المعارضة فى هذا الموقف؟ وأذكر القارئ بما سبق أن قلناه من أن المعارضة ـ فى أبسط معانيها - تعنى «الرأى الآخر»... أى الرأى المخالف أو المناقض لرأى أو موقف أو اتجاه معين. وهنا نرى واحدًا من جنود المسلمين قد شاهد «قائده الأعلى» المؤيَّد بالوحى من السماء قد نزل بجيشه فى مكان، رأى هو ـ باجتهاده الخاص ـ أن هناك ما يفْضُله، فلما استوثق أن

---

(١) نُغَوِّرُ: ندفن ونطمس.

(٢) القُلُب: الآبار. جمع قليب.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: القسم الأول، ص ٦٣٠.

اختيار النبى ليس وراءه وحى من عند الله، أبدى رأيه فى شجاعة، وقدم الأسباب التى دعم بها اختياره، ونزل النبى ﷺ عن رأيه إلى رأى الحباب.

* * *

ولكن المعارضة أو الرأى الآخر فى بدر لم يَخْلُ أحيانًا من حدَّة غير مستساغة، كما حدث قبل التحام المسلمين بالكفار، فقد قال النبى لأصحابه:

- إنى قد عرفتُ أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا لاحاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث[1] فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرِجَ مُسْتَكْرَهًا.

قال أبو حذيفة بن عتبة:

- أنقتلُ آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيتُه لألحمنّه[2] بالسيف!!

فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر:

- يا أباحفص: أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟!

وشعر أبو حذيفة بالأسى والندم فكان يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة».

فَقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا[3].

---

(١) كان أبو البخترى بن هشام أكَفَّ الناسِ عن رسول الله ﷺ وهو فى مكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شئ يكرهه. وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب.

(٢) أى: لأضربنه بالسيف حتى يخالط السيف لحمه.

(٣) سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص ٦٢٩.

وأعتقد أن عامة المسلمين لم يكونوا يعلمون آنذاكَ أن العباس كان بمثابة عين للرسول ـ عليه السلام ـ فى مكة، وكان يكشف له أسرارهم فى كُتب يبعث بها سرًّا للنبى [انظر للمؤلف: أدب الرسائل فى صدر الإسلام، الجزء الأول، ص ٩٩-١٠١].

=

٢- فى غزوة أحد

فى العام الثالث للهجرة زحفت قريش، ونزلت مقابل المدينة بذى الحليفة لقتال النبى والمسلمين؛ ثأرًا لهزيمتها فى بدر. وكان رأى النبى ﷺ ألاَّ يخرج المسلمون لقتال الكفار، مفضلاً البقاء فى المدينة، وعرض رأيه هذا على أصحابه بطريقة توحى بأنه رأى اجتهادى، ليس وراءه وحى يلزمهم به.

فقال:

- إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإنْ أقاموا أقاموا بِشَرِّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها(١).

كان هذا هو رأى النبى ﷺ وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وأرسل الرسول ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول يستشيره(٢)، فكان رأيه هوءرأى النبى ـ عليه السلام ـ وكبار الصحابة: أى البقاء بالمدينة، واتخاذ عدة الدفاع، فإن أقام الكفار أقاموا بشرٍّ محبس، وإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال

= وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : «كنت غلامًا للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا ـ أهل البيت ـ فأسلم العباسُ، وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال متفرق فى قومه». [سيرة ابن هشام القسم الأول ٦٤٦].

(١) لأن أهل المدينة أعلم بدروبها وطُرقها ومخابئها من المهاجمين، وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن.

(٢) جاء فى السيرة الحلبية ٢/٢١٨ أن هذه كانت أول مرة يستشير فيها النبى رأس المنافقين ابن سلول، وهى براعة سياسية من رسول الله ـ عليه السلام ـ فالخطر يهدد المدينة كلها، وابن سلول ما زال رأسًا من رءوسها، والأحداث ستأتى تترى تكشف عن حقيقته، وتفضح نواياه.

فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا[1].

ولكن كان هناك «الرأى الآخر».. وراءه حماسة الشباب، وحب الجهاد، وكثير من هؤلاء لم يشهدوا بدرًا:

- اخْرُجْ بنا يارسول الله إلى أعدائنا، لا يرونا أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا.

ويرتفع صوت حمزة ـ رضى الله عنه ـ:

- والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة.

ويظهر أن الذين دعوا للخروج كانوا يمثلون غالبية المسلمين، فاستجاب النبى ـ عليه السلام ـ لهذا الرأى وهو كاره، فندم الناس وعرضوا البقاء فى المدينة بعد أن لبس لأْمَتَهُ، واستعد للقتال، ولكنه قال: «**ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل...**».

واتخذ ابن سلول من خروج النبى ـ عليه السلام ـ إلى أحد ذريعة لانخذاله ورجوعه بثلث الناس قائلا:

- أطاعهم وعصانى، ما ندرى علامَ نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس[2].

* * *

وما فعله عبد الله بن أُبىّ بن سلول إذ انسحب بثلث الجيش يوم أحد يعد من قبيل الغدر والخيانة والنكث بالعهود فى أحرج الأوقات وأشدها، ولا يدخل فى نطاق معارضة رأى برأى، أو مخالفة عن رأى القائد الأعلى فى

---

(١) عرضت السيرة الحلبية ٢/٢١٩ لرواية مرجوحة مؤداها أن ابن سلول حينما استشاره النبى ـ عليه السلام ـ أشار بالخروج لقتال الكفار بعيدًا عن المدينة. والصحيح ما ذكرناه، يؤيد هذا ما ثبت تاريخيًّا من انخذال ابن سلول بثلث الناس يوم أحد بحجة أن محمدًا بخروجه هذا «أطاعهم وعصانى» على حد قوله.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: القسم الثانى ٦٣ وما بعدها. وانظر كذلك السيرة الحلبية: الجزء الثانى ٢١٨-٢٢٠.

٣- فى غزوة الأحزاب

خرج زعماء من بنى النضير إلى قريش فى مكة، ودعوهم إلى حرب الرسول ﷺ وقالوا لهم ضمن ما قالوا: «.. إن دينكم أحق من دينه، وأنتم أولى بالحق منه...»

وكما حرضوا قريشًا حرضوا غَطَفان...

وفى شوال من العام الخامس للهجرة خرجت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، ونزلوا إلى جانب «أُحُد».. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع - وهو جبل بالمدينة - فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم.

وما زال حُيَىُّ بن أخطب النضرى ببنى قُرَيْظَة حتى نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ واشتد الكرب بالمسلمين، وظل حصار المشركين قرابة شهر.... ولم يكن قتال اللهم إلا تناوش فى فترات متفرقة بالنبال.

كانت قوة الأعداء أضعاف قوة المسلمين... قريش... غطفان... بنو النضير... بنو قريظة... ثم المنافقون الذين دأبوا على الغدر واهتبال الفرص فى ساعات الحرب والكروب.

وطال أمد الحصار، فأراد النبى ﷺ أن يجرب «حلاً سياسيًّا» يقسم به «وحدة الأحزاب»، ويخذل به عن قريش، فبعث إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف، وفاوضهما على «ثلث ثمار المدينة» مقابل خروج غطفان

وأهل نجد من حلف قريش، وفك الحصار عن المدينة والرجوع إلى بلادهم، وكتب مشروع الاتفاق، ولم يبق إلا التوقيع والإشهاد.

وبعث النبى ـ عليه السلام ـ إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليستشيرهما فى الأمر، فغُرْم المعاهدة اقتصاديًّا لا يقع إلاَّ على الأنصار؛ لأنهم أصحاب الأرض والنخل والثمار، وهم «أصحاب المصلحة الحقيقية» فى مثل هذه الحال، وهذا هو السر فى أنه لم يستشر واحدًا من المهاجرين.

قال السعدان: يا رسول الله: أَمْرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟

وجاء جواب الرسول ﷺ مقرونًا بشرح البواعث إلى مثل هذا العمل:

- بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم[1] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمْرٍ مَّا. فقال سعد بن معاذ:
- يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بَيْعًا[2]. أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب[3].

* * *

(١) كالبوكم: اشتدوا عليكم.

(٢) أى: إلا على سبيل الضيافة أو التجارة.

(٣) انظر سيرة ابن هشام: القسم الثانى، ص ٢١٤-٢٢٣.

ظروف عادية؛ لأن النبى ﷺ كان يرى البقاء فى المدينة والقتال عنها وفيها إذا هاجمها المشركون.

وأشار ابن أُبىّ بالرأى نفسه، وقدم له من المبررات التاريخية والواقعية ما يدعمه، ولكن النبى ﷺ استجابة للرأى الآخر الذى نادت به الأغلبية خرج إلى المشركين، ولم يُبْدِ ابن سلول وجماعته - فى هذه المرحلة - اعتراضًا على خروج جيش المسلمين لملاقاة أعدائهم، بل خرجوا ضمن الخارجين، وساروا معهم أمدًا طويلا، وهذا يعنى أنهم سلموا عمليًّا بما سلم به النبى - عليه السلام - من الخروج لقتال الأعداء، وجاء الانسحاب والمسلمون يتهيئون لخوض المعركة، أى فى أحرج الأوقات التى تكون المخالفة الضئيلة فيها خطأً جسيمًا، بل خطيئة كبرى قد تجر إلى هزيمة نكراء.

وكانت معركة أُحد - كما قال ابن إسحاق - يوم بلاء ومصيبة وتمحيص[٢]، فقد استُشهد قرابة سبعين من المسلمين على رأسهم حمزة عم النبى ﷺ كما جُرح النبى، وشُجَّ وكُسرت رباعيته.

وعَوْدًا على بدء نذكّر القارئ بأن النبى - عليه السلام - كان يرى البقاء فى المدينة، ولكنه استجاب لمعارضى رأيه وخرج إلى أُحد.

ونجمت صورة أخرى من المعارضة فى شكل غدر وخيانة جماعية من ابن سلول وعصابة المنافقين، وهو عمل ليس له اسم فى وقتنا الحاضر إلا «جريمة الخيانة العظمى».

ولكن النبى - عليه السلام - لم يعرض لهؤلاء بعقاب، على الرغم من أنهم - لو حكّمنا أبسط قواعد العدالة - يستحقون القتل. وكان مسلكه هذا هو انعكاس لسياسته العامة مع المنافقين، فقد امتنع النبى - عليه السلام - عن قتلهم مع علمه بنفاق بعضهم، وقبل علانيتهم لوجهين:

---

(١) سيرة ابن هشام، القسم الثانى، ص ١٠٥.

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يُظهرون الإسلام، ونفاقهم يُعرف تارة بالكلمة يسمعها الرجل المؤمن فينقلها إلى النبى ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوها أو لا يحلفون، وتارة بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة والجهاد، واستثقالهم للزكاة، وظهور الكراهة منهم لكثير من أحكام الله، وعامتهم يُعرفون مِنْ لَحْن القول.

... ولكن جميع هؤلاء المنافقين يُظهرون الإسلام، ويحلفون أنهم مسلمون، ويتخذون أيمانهم جُنَّة، وإذا كانت هذه حالهم فالنبى ﷺ لم يكن يقيم الحدود بعلمه، ولا بخبر الواحد، ولا بمجرد الوحى، ولا بالدلائل والشواهد، حتى يثبت الموجب للحد ببينة أو إقرار.

الوجه الثانى: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما فى استبقائهم، وقد بين ذلك حين قال: «**لا يتحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه**»... فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم لأوشك أن يظن أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد.. وأن يخاف من يريد الدخول فى الإسلام أن يُقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره[1].

* * *

وانتهت «أُحُد».. أُحُد البلاء والمصيبة والتمحيص ـ كما يقول ابن إسحاق ـ لتبقى قاعدة «الشورى» فوق الأحداث نابعة من الأمر السماوى الجليل: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[2]... مهما كانت النتائج أليمة حزينة، فهى قاعدة تتوقف عليها الحياة الكريمة السليمة.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

(١) عن ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص ٣٥٤-٣٥٨، ٤٣٥، ٤٣٦.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

إن هذه الواقعة التاريخية - كما يقول الدكتور عمارة ـ قامت وتقوم شاهداً على مشروعية المعارضة، بل وعلى ضرورتها، فلقد سعى الرسول قبل إبرام المعاهدة إلى مشاورة أصحاب المصلحة، ولم يكتفِ بانتظار مبادرتهم هم للمشاورة والمعارضة، بل بحث عن المشورة والمعارضة فى مصادرها وفى مظانها... لأن هذا هو شأن السياسة والمعارضة السياسية فى نهج الإسلام، ولو كان الأمر دينًا لما كانت الشورى واردة، ولا كانت المعارضة والاعتراض[1].

* * *

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، ص ١٠٤.

obeikandl.com

٤- فى صلح الحديبية

مضى على النبى ﷺ فى المدينة ست سنوات، وكانت هذه السنوات الست مشحونة بالأحداث الجسام، وخصوصًا فيما يتعلق بالإنجازات الحربية، فقد أرسل عددًا من السرايا إلى جهات متعددة من الجزيرة، أحرزت عدة انتصارات وزادت من تثبيت هيبة الدولة الجديدة.

أما بدر وأُحُد والخندق فلو نظرنا إلى حصيلتها على وجه الإجمال لوجدنا كفة المسلمين فيها أرجح، حتى معركة أُحد التى انكسر فيها المسلمون خرجوا منها بدروس وعبر كان لها أثر كبير فى حياتهم.

كما استطاع النبى - عليه السلام - أن يتخلص من رءوس يهودية أبْدت عن نواجذ الشر والخيانة والغدر. وطرْد بنى قينقاع من المدينة، وكذلك بنى النضير. وفى السنة الخامسة كان الإنهاء التام لوجود بنى قريظة، بعد مقتل مقاتلتهم، وغنم أموالهم وذراريهم، ولم يبق من اليهود إلاَّ خيبر التى سيدق المسلمون حصونها فى صفر من العام السابع للهجرة.

ولكن بقى لقريش كيانها المميز فى مكة وخارجها، مصدره هيمنتها على الكعبة والبيت الحرام، وتحريمها الحج وزيارة البيت على المسلمين.

واشتاق النبى ﷺ والمسلمون لزيارة بيت الله الحرام. وفى ذى القعدة من العام السادس، واستجابة لرؤيا صادقة، خرج النبى ومعه بضع مئات من المسلمين قاصدين العمرة. ونزلوا بالحديبية، وأبت قريش على النبى ومن معه

دخول مكة ـ على ما هو معروف فى كتب التاريخ ـ ودارت عدة سفارات انتهت بعقد ما يسمى تاريخيًّا «بصلح الحُدَيْبِيَة»[1].

وقد تضمن هذا الصلح الشروط الآتية:

١- هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

٢- حق قريش فى أن يرد محمد إليها من جاءه منها مسلمًا، وليس لمحمد مثل هذا الحق.

٣- حرية القبائل الأخرى فى الدخول فى حلف مع أى من الطرفين.

٤- رجوع محمد ومن معه هذا العام، وعودتهم لزيارة البيت الحرام فى العام التالى.

٥- الالتزام بحسن النوايا، وتجنب الخيانة والغدر[2].

* * *

وكان وَقْعُ هذا الصلح على نفوس الغالبية العظمى من المسلمين شديدًا، واستبد بهم شعور كان مزيجًا من الحُزن والضيق، زاد من حِدَّتِهِ عوامل متعددة، أهمها:

١- أن هذه هى المرة الأولى التى يقصدون فيها البيت الحرام بعد الهجرة، وبعد انقطاعهم هذا الأمد الطويل. هذا إلى ما نالوه من مشقة قطع هذا المشوار الطويل من المدينة إلى الحديبية... ثم بعد ذلك يُصَدُّون عن بيت الله؟!!

٢- أنهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء صادقة، وأنها نوع من الوحى، وقد رأى النبى ﷺ فى المنام أنه والمسلمين يدخلون بيت الله الحرام، ويؤدون المناسك، فكيف يعودون دون تحقيق الرؤيا؟!.

---

(١) انظر نص الصلح فى: إمتاع الأسماع للمقريزى ١/٢٩٨.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: القسم الثانى، ص ٣٠٨.

٣- وهم يعلمون كذلك أن قريشًا لا تملك هذا الحق، وليس لها سوابق - فردية أو جماعية - فى صَدِّ أحدٍ عن بيت الله، وخصوصًا أن قريشًا تعلم أن المسلمين لم يكن فى نيتهم الحرب، بدليل أن النبى استنفر معه كثيرًا من العرب «وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومُعَظِّمًا له».

٤- ما أبداه سُهَيْل بن عمرو من تعسف وتعنت فى صياغة الصلح حين أصر على استبدال عبارة «محمد بن عبد الله» بعبارة «محمد رسول الله». وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة - رضى الله عنهما - بيد الكاتب - وهو على بن أبى طالب - فأمسكاها وقالا:

- لا تكتب إلا «محمد رسول الله» وإلا فالسيف بيننا.

فجعل رسول الله يخفضهم ويومئ إليهم بيده أن: اسكتوا[1]. هذا بالإضافة إلى أن مبدأ الصلح فى ذاته كان على غير رغبة الغالبية العظمى من المسلمين.

٥- ما يفهم من ظاهر الشرط الثانى من انعدام التكافؤ بين الطرفين، إذ اعتبره المسلمون - وخصوصًا عمر - «إعطاء للدنية فى الدين»، أى: تفريطًا وتهاونًا فيه.

٦- ما وقع بشأن أبى جندل بن سهيل بن عمرو[2] حينما طلع على المسلمين فى الحديبية ففرح به المسلمون، ولكنَّ أباه قام إليه، وضرب وجهه بغصن شوك، وأخذ بتلبيبه - تنفيذًا للصلح - وهو يصيح بالمسلمين: يامعشر المسلمين: أَأُرَدُّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى[3]؟!

* * *

(١) المقريزى: إمتاع الأسماع ١/ ٢٩٧.

(٢) كان قد أسلم فى مكة فسجنه أبوه، وقيده بالحديد، ولكنه استطاع أن يفلت من قيوده، ويقصد المسلمين فى الحديبية.

(٣) إمتاع الأسماع ١/ ٢٩٤.

الله»، وذلك حين رأى بعينيه الكُسُوب الهائلة التى جناها المسلمون بالحديبية. فكان يقول:

- مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعتُ يومئذٍ؛ مخافة كلامى الذى تكلمتُ به، حتى رجوتُ أن يكون خيراً[1].

* * *

وتتوالى الأحداث، وتتضح الحقائق تَتْرَى لتثبت أن الحُديبية كانت فتحًا حقيقيًّا:

١- فقد أفسد النبى ﷺ على قريش ما تعمدوه من إغضاب العرب على الإسلام بما ادعوا من قَطْعِه للأرزاق، وتهديده للأسواق التى يعمرها الحاج، ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها، فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة، كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام، مما يقطع بحسن النية، وحب السلام، والبعد عن البغى والعدوان[2].

٢- ولأول مرة تعترف قريش رسميًّا بمحمد قائدًا وزعيمًا، وبالمسلمين جماعة لها وجود وثقل وكيان. نعم لم يعد محمد «عمليًّا ورسميًّا» ذلك المطارَد المطلوب، ولم يعد المسلمون هم الضعفاء أو المستضعفون، ولكنهم بقيادة الرسول أصبحوا كيانًا سياسيًّا «معترفًا به».

٣- كان رد الفعل تجاه المادة الثالثة من المعاهدة مباشراً سريعًا، إذ «تَوَاثَبَتْ خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم. وكانت هذه المادة بمثابة حجر الزاوية فى خطة

(١) سيرة ابن هشام، القسم الثانى، ص ٣١٧.

(٢) انظر العقاد: عبقرية محمد، ص ٥٧.

النبى العامة لكسب شبه جزيرة العرب إلى جانبه فى السنوات القليلة التى تلت الحديبية»[1].

٤- لم تفد قريش من الهدنة شيئًا، فى حين أفاد النبى والمسلمون من هذه الهدنة التى لم تستمر إلا عامين الكثير والكثير، فقد عادوا إلى مكة معتمرين فى العام التالى[2]، ودكوا معاقل اليهود فى خَيْبَر وفَدَك[3]، وكانت حملة مُؤْتَة فى العام الثامن للهجرة[4]، وزاد عدد المسلمين وقويت شوكتهم بإسلام عدد من كبار المكيين، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص.

٥- ثم كانت واقعة «أبى بصير» الذى فر من مكة مهاجرًا إلى النبى، فأرسلت قريش فى طلبه، وقال له النبى ﷺ وهو يرده مع رسولى قريش: «**يا أبا بصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد عَلِمْتَ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لكَ ولمن معك من المستضعَفين فرجًا ومخرجًا**».

وفى الطريق تمكن من قَتْلِ أحد الرسولين، وخرج حتى أتى «العيص» على طريق عير قريش إلى الشام، وعلم بخبره المسلمون الذين حُبسُوا بمكة، فقصده منهم قرابة سبعين، أخذوا يقطعون على قريش طريقها، ويصادرون أموالها وتجاراتها، حتى كتبت قريش إلى الرسول تسألُ بأرحامها إلاَّ آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فآواهم الرسول، فقدموا عليه بالمدينة[5].

---

(١) عون الشريف قاسم: نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول، ص ٦٨.

(٢) انظر ابن هشام: القسم الثانى، ص ٣٧٠.

(٣) انظر السابق: ٣٢٨ وما بعدها.

(٤) انظر السابق: ٣٧٣. كما مكنت هذه الهدنة النبى ﷺ من توجيه نظره إلى الخارج بالدعوة الإسلامية، مستخدمًا أسلوبًا جديدًا هو أسلوب «الرسائل» التى وجهها إلى المقوقس بمصر، وقيصر الروم، وكسرى الفرس، ونجاشى الحبشة، وغيرهم.

[انظر تفصيل ذلك فى كتابنا: أدب الرسائل فى صدر الإسلام ٧٩-٨٥].

(٥) انظر سيرة ابن هشام، السابق: ٣٢٣، ٣٢٤.

وتعلو أصوات المعترضين، ويقصد عمر بن الخطاب أبا بكر ـ رضى الله عنهما ـ:

- يا أبا بكر: أليس برسول الله؟
- بلى.
- أو لسنا بالمسلمين؟
- بلى.
- أو ليسوا بالمشركين؟!
- بلى.
- فعلامَ نعطى الدنيَّة فى ديننا؟!
- ياعمر: الزم غرزه[1]، فإنى أشهد أنه رسول الله.
- وأنا أشهد أنه رسول الله.

ويشعر «عمر» أنه لم يجد الجواب الشافى عند «أبى بكر»، فيقصد رسول الله ﷺ بنفس الأسئلة التى يختمها بهذا السؤال:

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟!
- **أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالفَ أمره، ولن يضيعنى**[2].

* * *

وأحداث الحديبية ـ من أول خروج النبى والمسلمين من المدينة إلى توقيع الصلح والإشهاد عليه ـ **تقودنا إلى عدة ملاحظات هى:**

---

(١) الزم غرزه: الزم أمْرَهُ، وكن ممتثلاً لما يقضى به النبى عليه السلام.

(٢) سيرة ابن هشام، القسم الثانى، ص ٣١٧.

وفى إمتاع الأسماع ١/ ٢٩٥: إنى رسول الله، ولن أعصيه، ولن يضيعنى.

الملاحظة الأولى: أن النبى ﷺ لم يستشر واحدًا من المسلمين فى أية مرحلة من مراحل الصلح أو أية مسألة من مسائله، أو حتى فى مبدأ الصلح كصلح.

والملاحظة الثانية: أن معارضة المسلمين - مهاجريهم وأنصارهم - لصلح الحديبية تكاد تبلغ حد الإجماع.

والملاحظة الثالثة: أن أبا بكر فى جوابه على «عمر» - رضى الله عنهما - لم يدفع ما دار بخلد عمر من نقد موضوعى للمعاهدة بانطوائها على ما اعتقد أنه إجحاف بيِّن بالمسلمين، وخصوصًا الشرط الثانى، ولكن أبا بكر وجهه وجهة أخرى إلى ضرورة الطاعة لما أبرمه - عليه السلام - «لأنه رسول الله».

وكل ذلك يقودنا فى النهاية إلى الاعتقاد القريب من اليقين بأن وراء هذا الصلح وَحْيًا، وأن هذا الوحى كان له مكانه من البداية إلى النهاية، وإنْ لم يصرح النبى - عليه السلام - بذلك.

- فقد كان الاستهلال برؤيا صالحة بدخول النبى والمسلمين بيت الله الحرام، ورؤيا الأنبياء وحى.
- ثم كان رد النبى ﷺ بما يوحى بأن وراء عمله هذا «أمرا» أوسع وأبعد مدى من حدود المعرفة العادية والنظر المعهود:
- إنى رسول الله - أنا عبد الله ورسوله - لن أعصيه - ولن أخالف أمره - ولن يضيعنى.
- كما أنه لم يستشر واحدًا من المسلمين لا فى مبدأ الصلح ولا فى مضمون الصلح نفسه، على غير ما كان يتبعه فى أغلب الأحوال.
- ثم يأتى تأييد السماء صريحًا يدعم هذه النظرة، ويعضد هذا التكييف حين يسمى الحديبية «فتحًا»... ولم يكن فتحًا عاديًّا، ولكنه «فتح مبين».

ويدرك «عمر» بعد ذلك مغزى رد النبى عليه بأنه «رسول الله» وأنه «لن يعصى

وسقط أهم بند كانت تتعلق به قريش وتتشبث، بل تحول هذا البند لصالح المسلمين، وربَّمَا لا نغلو إذا قلنا إنه ـ فى حقيقته ـ كان فى صالحهم من أول الأمر، وإن دل ظاهره على عكس ذلك.

فبصرف النظر عن واقعة أبى بصير وإخوانه كان هذا النص فى المعاهدة فارغ المضمون بالنسبة لقريش، وغير ضار بالإسلام والمسلمين من ناحية أخرى، فلو أن النبى ﷺ ـ كما يقول العقاد ـ شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية... فإن المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشًا ليس بمسلم، ولكنه مشرك يشبه قريشًا فى دينها، وهى أولى به من بنى الإسلام. أما المسلم الذى يرد إلى المشركين مكرهًا فإنما الصلة بينه وبين نبى الإسلام - وهو شىء لا سُلطان عليه للمشركين ـ ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب.

فإن كان الرجل ضعيفَ الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين[1].

* * *

وعَوْدًا على بدء نقول: لقد عارض المسلمون صُلح الحديبية.. نعم عارضوه بشدة، وبلغ الضيق بصحابى جليل ـ هو عمر بن الخطاب ـ أن يعتبر هذا العمل السياسى تهاونًا فى الدين.. أو على حد تعبيره «إعطاءً للدنيَّة فى الدين».

وكانت معارضة المسلمين للصلح معارضة جماعية، أو بتعبير أدق «معارضة إجماعية»، فلم نسمع «صوتًا» يقول للمعاهدة «نعم»، حتى صوت أبى بكر، لأن «نعم» التى قالها إنما كانت «للرسالة والرسول»، ولم تكن للمعاهدة

(١) عبقرية محمد، ص ١٠. وانظر جابر قميحة: أدب الرسائل فى صدر الإسلام، الجزء الأول، ص ٢٦-٢٩، ٦٩-٧٨.

نفسها... «إنه رسول الله، ولن يضيعه الله...» فمظنة الخسارة والتضييع واردة لولا رعاية الله وحمايته.

وكانت معارضة المسلمين للصلح شاملة لو نظرنا إلى وجهتها، إذ كانت معارضة لمبدأ الصلح، ومعارضة للصلح كله... أى بكل ما فيه من بنود وشروط.

وهذه المعارضات - كما يقول أحد الكُتَّاب - كانت نتيجة لأسباب عدة: قوة الإيمان التى تأصَّلت فى نفوس المسلمين، وأضفت عليهم عزة لا تقبل الدنية فى أى أمر مهما كانت التضحية المترتبة عليه، وشدة الشوق والتلهف إلى زيارة البيت الحرام والطواف به بعد غيبة عنه دامت ست سنوات، وخاصة أنهم أصبحوا منه قاب قوسين أو أدنى. وكذلك الفِطْرة البشرية وإمكاناتها المحدودة التى جعلتها تعجز عن إدراك تلميحات الوحى الإلـهى الذى أشار إليه النبى ﷺ بقوله عندما بركت القصواء: «**ماخلأت القَصْوَاء**[1]، **وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسَها حابسُ الفيلِ**». ثم قال: «**والذى نفسى بيده لا يسألونى خَصلة يعظمون فيها حرمات الله إلَا أعطيتهم إياها**». ثم قوله لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «**إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى**»[2].

نعم كان هناك الأمر الغيبى أو الوحى الذى لم يستطع الرسول أن يُبِين عنه صراحة، وكل ما سوغ به إمضاء هذا الصلح أنه: رسول الله... وأنه مطيع لا يخالِف.. وأنه معصوم لا يضيع!!

ولم يفصح الرسول - عليه السلام - بأن وراء قبوله هذا الصلح «أمرًا علويًّا» حتى لا يفسد كل شىء:

---

(١) خلأت الناقة: حرنت وعاندت، وبركت من غيرعلة.

(٢) زكريا عبد المنعم: نظام الشورى فى الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة، ص ١٥٣.

- فليترك قريشًا تقترح وتفرض من النصوص والشروط ما تشاء؛ فإرادة الله نافذة.
- وليعبر المسلمون عَمَّا يدور فى أخلادهم ويضطرب فى نفوسهم من معارضة ومراجعة، فذلك جزء من المنهج السديد فى تربية الشعوب.
- ثم تكشف الأحداث عن كل شئ، ويخسر الكفار كل شىء، ويكسب المسلمون كل شىء... والعاقبة للمتقين.

* * *

obeikandl.com